كتب تحترق!

كتاب فرنسي جديد يلقي الضوء على عمليات نهب المكتبات والآثار العراقية

صدر حديثا في فرنسا، عن دار (دونويل /DENOEL) كتاب جديد تحت عنوان (كتب تحترق Livres en feu) بقلم لوسيان بولاسترون POLASTRON وهو أحد الاختصاصيين الفرنسيين بعلم المكتبات، وسبق له أن ألف عدة كتب أخرى حول فن الخط، يعدها البعض مصادر مهمة في هذا الميدان. وحاول بولاسترون، وهو أحد المستعربين الفرنسيين، أن يتعقب في كتابه الجديد تاريخ الحرائق التي تعرضت لها، على مر العصور، أشهر المكتبات في العالم، وكذلك عمليات النهب والحرق المتعمد التي طالت تلك المكتبات. ويروي بولاسترون كيف تعرضت بعض الكتب، على امتداد التاريخ، الى عمليات حرق متعمد قامت بها جهات دينية أو سياسية، كانت ترى في تلك الكتب مصادر للهرطقة الدينية أو السياسية. ولا ينسى المؤلف أن يتوقف عند حريق مكتبة الاسكندرية، وعند ما فعله المغول من عمليات تخريب للمكتبات البغدادية، ومحاكم التفتيش في القرن الوسطى، وموقف النازية من بعض الكتب التي كانت ترى فيها خطرا يهددها.

حسين كركوش

ويكرس المؤلف عدة صفحات لعمليات التخريب والحرق المتعمد التي تعرضت لها مكتبات عراقية، منها المكتبة الوطنية، اثناء دخول القوات الأميركية وسقوط النظام العراقي. ويقدم الكاتب معلومات جديدة حول عمليات النهب التي تعرضت لها العديد من المواقع الأثارية في العراق.

وكانت وسائل الاعلام الفرنسية المرئية والمسموعة، إضافة الى الصحافة، قد غطت بشكل واسع، عمليات النهب والحرق المتعمد التي تعرضت لها المتاحف والمكتبات العراقية، منذ الساعات الأولى لدخول القوات الأميركية لبغداد، وسقوط نظام صدام حسين. واجرى، في حينها، مراسلو بعض كبريات الصحف الفرنسية في العاصمة العراقية، مقابلات مع بعض القائمين على إدارة المتاحف، وخصوصا المتحف العراقي في بغداد، لإلقاء مزيد من الضوء على عمليات النهب التي طالت مقتنياته. ولمحت بعض الصحف، في حينها، الى مساهمة رجال النظام السابق في ترتيب عمليات النهب.

لكن الكتاب الذي بين أيدينا يعد أول كتاب أنجزه متخصص فرنسي في ميدان علم المكتبات وإدارة المتاحف. وكما سيرى القارئ، فإن المؤلف يقدم معلومات مثيرة ويشير الى حوادث معينة، ويلمح الى إلقاء مسؤولية عمليات النهب على عاتق جهات بعينها. وقد حرصنا، من جانبنا، على ترجمة هذه الصفحات الخاصة عن عمليات نهب المكتبات والآثار العراقية، بشكل حرفي تقريبا، حرصا منا على تقديم هذه المعلومات أمام المسؤولين ورجال الثقافة وأصحاب الاختصاص. فعمليات نهب الاثار والمكتبات العراقية، كانت كارثة وطنية بكل المقاييس، وأفعالا بربرية لا يمكن تبريرها، بأي حال من الأحوال.

وباختصار، فإن هذه الكارثة التي شهدها العراق كانت بمثابة تدمير متعمد لتاريخ شعب بأكمله ومسح لذاكرته. لقد كثر الحديث هذه الأيام، وهو أمر من الضروري جدا أن يحدث، عن نهب الأموال العراقية وتبديدها بدون وجه حق من قبل صدام حسين. ولكن رغم الخسارة المالية الكبيرة، فإن تلك الأموال بالامكان استرجاعها أو تعويضها، لكن من يعوض كتابا واحدا خطه أبناء الرافدين قبل آلاف السنين، فما بالك بمكتبات بأكملها؟ إنها ثروة العراق الروحية التي لا تعوض، تلك التي دمرت.

إن أخطر معلومة يقدمها مؤلف (كتب تحترق) هي تلك التي تتعلق بعمليات نهب الآثار العراقية في عهد الرئيس العراقي المخلوع، صدام حسين. إذ ينقل المؤلف عن مجلة (أركولوجيا) المتخصصة، في عددها الصادر في شهر كانون الثاني 2001 قولها، في تحقيق نشرته على صدر صفحتها الأولى تحت عنوان (ترك كامل حكمت عليه منظمة الأمم المتحدة بالضياع)، "أن مائة قطعة أثارية مكتوبة باللغة السمارية كانت تهرب، يوميا، وعلى امتداد سنوات الحصار، خارج العراق".

ومن المعلومات المثيرة التي يشير اليها المؤلف هي، حادثة موت صحافية أميركية، تدعى اليزابيث نيفر، التي يشير الى موتها في ظروف غامضة داخل العراق في الخامس من شهر أيار، أي بعد فترة قصيرة من دخول القوات الاميركية الى العراق.

ويقول الكاتب أن السيدة اليزابيث نيفر كانت قد نشرت في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني 2003، في صحيفة (بوسطن كلوب) تحقيقا حول عمليات النهب التي كانت تتعرض لها المواقع الأثارية داخل العراق منذ عام 1991، وعلى امتداد سنوات الحصار الذي كان مفروضا على العراق، سواء بسبب عمليات تنقيب عشوائية لا تخضع لأي قانون، أو بسبب سرقات كان يقوم بها بعض السكان العراقيين الذين جوعهم الحصار، وهو أمر ساهم في ظهور، ما سماه هواة جمع التحف النادرة الغربيين بـ "العصر الذهبي"، بسبب حصولهم لسهل على اللقى الأثرية العراقية للسرقة والتهريب.

ويقول المؤلف أن المادة التي نشرتها الصحافية اليزابيث نيفر، رصدت الفوضى والتخريب اللذين تعرضت لهما المواقع الأثارية العراقية، مباشرة بعد العمليات العسكرية الاميركية التي أعقبت حرب الخليج الثانية، حيث تمت سرقة 4000" اربعة آلاف" لقية اثارية، منها 2000 "ألفا" لقية تعد من الكنوز. وكانت الصحافية قد حذرت في مقالها المذكور من حدوث عمليات نهب كثيرة أخرى، إذا لم يتم تدارك الأمر.

ويتابع المؤلف قائلا، بأنه بعد أن نشرت الصحافية اليزابيث نيفر مقالها المذكور، فإن نداءات عديدة أطلقتها أوساط أثارية دولية وعلماء آثار وباحثون وأمناء مكتبات، أو منظمات مهتمة بصيانة الآثار مثل، منظمة "الدرع الأزرق"، وهي منظمة ثقافية غير حكومية يتشابه نشاطها في ميدان الثقافة، بميدان منظمة الصليب الأحمر الدولية، في مجال تقديم الخدمات الصحية. ولكن هذه الحملة الدولية لم تسفر، كما يقول المؤلف، سوى عن نتيجة واحدة، اقتصرت على الولايات المتحدة وهي، حدوث حرب كلامية قاسية بين العلماء "المتعصبين وطنيا" الذين يحتمون بالبيت الأبيض الأمريكي، من جهة، وبين معارضي الحرب على العراق، من جهة أخرى.

ثم يشرح مؤلف الكتاب انعكاسات هذه الحرب الكلامية الاميركية، فيقول كيف أن: "العديد من المختصين بالتنقيب عن الآثار والمهتمين بإدارة المتاحف، الذين تملأ أسماؤهم العديد من مواقع الانترنيت المتخصصة بتبادل المعلومات حول هذه المواضيع، تخلوا فجأة عن وقارهم وبدأوا، وعلى حين غرة، يشن بعضهم ضد البعض الآخر شتائم متبادلة، كاشفين بتصرفهم ذلك، كيف أن التعصب يكشف عن نفسه، من حيث لا يتوقعه احد. فقد تبين أن قسما كبيرا من المشتركين الاميركيين في